نشوء الدولة السودانية وسؤال الهوية القومية: قراءة آركيولوجية-تاريخية

أ.د. عبد الرحيم محمد خبير
قسم الآثار - كلية العلوم الانسانية
جامعة بحري

مستخلص:

السودان كتراكم ثقافي- تاريخي ظهر إلى حيز الوجود منذ آجال موغلة في القدم. بيد أن الدولة السودانية كبنية سياسية مؤسسية ومشروعية سلطة برزت منذ عهد دولة كوش الأولى (مملكة كرمة 2500 -1500ق.م). وتبلورت الشخصية القومية السودانية بصورة أكثر وضوحاً في دولة كوش الثانية (مملكة مروي 900 ق. م – 350م) .وشهد السودان منذ ذلك الزمان وإلى إستقلاله في غرة يناير 1956م متغيرات مهمة على كافة الأصعدة السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية. وكانت مسألة الهوية إحدى القضايا التي شكلت هاجساً لمختلف أنظمة الحكم التي تعاقبت على السودان.وتمتح هوية السودان القومية من مصدرين رئيسيين هما: العربي- الإسلامي ونظيره الأفريقي (السودانوي). ويحاج هذا المقال إستناداً إلى أدلة آثارية- تايخية بأن تيار السودانوية- Sudanism هو السمة الأكثر بروزاً في الشخصية القومية السودانية كما يستبان ذلك من خلال أحداث ثورة التاسع عشر من ديسمبر 2018م.

The Emergence of the Sudanese State and the Question of National Identity: an Archaeological-Historical Reading

Prof. Dr. Abdel Rahim Mohamed Khabir- Department of Archaeology, College of Humanities - University Bahri

Abstract:

Sudan is a cumulative cultural and historical entity that had seen the horizon since times immemorial. The Sudanese state as a political institution and legal authority did set foot since the appearance of the first Kingdom of Kush (Kerma 2500- 1500 B.C.).Yet, the Sudanese national identity clearly crystallized during the second kingdom of Kush (Meroe) (900 B.C.–350 A.D.). Since then up to the advent of independence (1st. January 1956) and the present- day Sudan has witnessed political, economic, social and cultural changes. However, the question of national identity has always become inevitable issue for the successive regimes ruling Sudan. The national identity of Sudan is

a derivative of two main sources: the Arab- Islamic one and its African counterpart (Sudanism). The Present article argues on the basis of archaeo-historical evidence that "Sudanism" being the most prominent characteristic for the Sudanese national identity in the incidents of 19th December 2018 Revolution.

مقدمة:

السودان كتراكم ثقافي-تاريخي ظهر إلى حيز الوجود منذ أزمان موغلة في القدم. والمقصود بلفظ «السودان» هنا جمهورية السودان بحدودها السياسية الحالية، فضلاً عن المشيخات والسلطنات والممالك التي كانت قائمة داخل هذه الحدود منذ أزمان بعيدة. وسكنت هذا القطر أقوام عديدة متنوعة الأعراق والثقافات. ورغم أن سؤال الهوية القومية في السودان: من نحن، ما هي علاقتنا بالآخر وماذا نريد أن نكون؟ قد طرح بشكل جلي منذ عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي-المصري) وعبرت عنه أهداف كل من جمعيتي الإتحاد السوداني (1920) واللواء الأبيض (1924) ومؤتمر الخريجين (1938م-1952م). ولكن بإستقراء التاريخ نلحظ أن السودانيين استطاعوا إنشاء العديد من الممالك والدول التي قوامها خليط شتى من الأجناس والثقافات مدفوعين بأشواق الوحدة الثقافية والسياسية التي يتوقون إليها منذ عشرات القرون. (أنظر الخارطة : شكل 1) . وشهدت الساحة السياسية والثقافية في السودان بعد إتفاقية نيفاشا للسلام بين الشمال والجنوب (9 يناير 2005م) تحولات وتطورات ليس لها نظير. ولعل أدق وصف لها ما ذكره أحد المثقفين السودانيين بأنها تبدو وكأنها عملية الإستقلال الثاني للسودان بعد حقبة مليئة بالإنكسارات والإنتصارات. وفي تقديري أن العديد من قضايا السودان خاصة السياسية والثقافية ومنذ قيام الدولة السودانية الحديثة في مطلع يناير 1956م ناجمة عن عدم استلهامنا لمنجزات موروثنا الثقافي والحضاري في أوجه حياتنا المختلفة بشكل كافٍ رغم أن التجربة الحضارية في السودان متفردة وثرَّة تآلفت فيها بشكل كبير كل العناصر الإثنية (العرقية) والثقافية القابعة في أرض هذا الكيان منذ آلاف السنين. ويطرح هذا البحث منهجاً آركيولوجياً-تاريخياً لدراسة الشخصية القومية من خلال الأدلة المادية التي كشفت عنها التنقيبات الآثارية والسجلات التاريخية بإعتباره يمثل قراءة علمية موضوعية للإجابة عن سؤال الهوية لمجموعات سكانية تتباين وبدرجات متفاوتة جغرافياً وإثنياً وثقافياً. فهل هنالك من الشواهد الأثرية والتاريخية ما يشير بأن هذا التنوع السوداني الماثل للعيان تؤطره قواسم ثقافية وحضارية مشتركة تسمح لنا بالإقرار بوجود كيان معنوي جامع يمكن أن يسمى ب «الشخصية القومية السودانية» أم أن هنالك «عدة شخصيات قومية» داخل هذا الكيان السياسي المسمى بـ«السودان»؟.

وفي تقديري أن حالة الشخصية القومية للنموذج السوداني(من منظور آركيولوجي-تاريخي) من خلال دراسة تاريخ الدولة السودانية عبر العصور يمكن إستبانتها في ثلاثة أبعاد هي:

1- البعد الإثني (العرقي)
2- البعد الثقافي-الإجتماعي
3- البعد السياسي

مدخل عام :

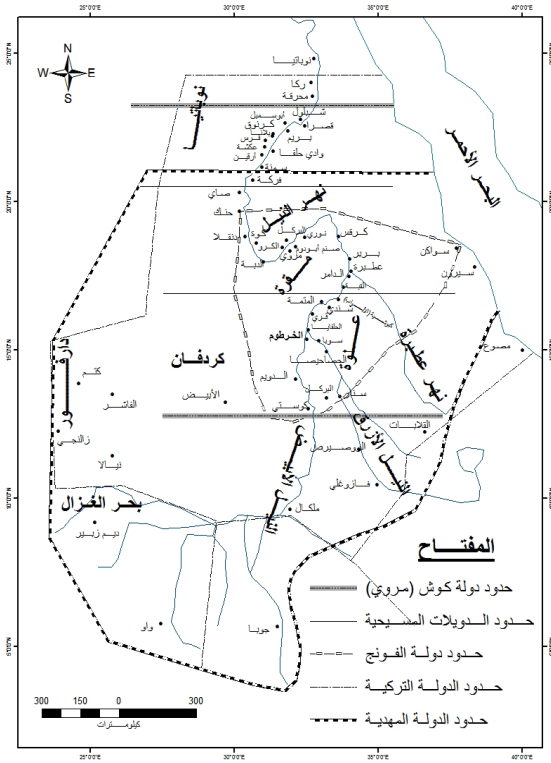

يعرف العديد من علماء الإجتماع الشخصية القومية بأنها «نمط الشخصية الذى يتميز بأكبر قدر ممكن من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد»[1]. ويروي يوسف سويف أن دراسة الشخصية القومية تعني (دراسة أكثر السمات الشخصية شيوعاً في أي مجتمع للوصول إلى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات. وقد يكتفي الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة تفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصيات القومية في عدد من المجتمعات[2]).ويختط الباحثون في دراسة الشخصية القومية منهجين أساسيين : فهناك من يرى أنها تمثل سمات مشتركة بين الأفراد الذين يعيشون في وطن معين بحيث يعد كل فرد منهم نموذج لهذه الشخصية وبحيث تنعكس على شخصية الفرد تلك السمات التي يقال أنها سمات الشخصية القومية «الطابع الفردي للشخصية القومية».وفي تصوري أن هذه النظرة لا تنطبق على الواقع السوداني لإننا نفترض تجانساً عرقياً وثقافياً بين مجموعاته السكانية . وهناك من يرى أن الشخصية القومية يمكن أن تبحث بإعتبارها شخصية معنوية- تعلو بمعنى ما على الأفراد – أي هي واحدة من تلك الكيانات الجماعية التي لا ترد إلى مجموع عناصرها بل يكون لها شبه بإستقلال ذاتي قياساً بالأفراد الذين يؤلفونها. ويلحظ في الحالة الثانية أن الإهتمام لا ينصب على الأفراد بل على ظواهر تتسم بطابع العمومية والديمومة النسبية بحيث تسمح لنا بوجود ذلك الكيان المعنوي المسمى بالشخصية القومية . وفي هذه الحالة فإننا فإننا ندرس الطابع «القومي للشخصية الفردية»[3].ولا ريب أن ذلك المدخل هو الأكثر ملائمة لدراسة موضوع الهوية القومية في السودان لأنه يرتكز على ظواهر حضارية تتسم بالعمومية مستمدة من تنوع ثقافي وثوابت حضارية حافظت على آصرة هذا القطر منذ أزمان موغلة في القدم برغم كل التحديات والمصاعب التي حلت به .

1- البعد الإثني (العرقي):

شهد السودان القديم تحركات سكانية دونما إنقطاع خلال أزمان وأحقاب متلاحقة بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى فترات التاريخ المدون. وتشير الخصائص التشريحية لعظام الهياكل الآدمية العظمية التي كشفت عنها الحفريات الآثارية للحضارات المختلفة التي إزدهرت في السودان والمؤرخ أقدمها إلى ما

يزيد عن تسعة آلاف عام إلى صفات مشتركة عديدة للمجموعات السكانية التي قطنت هذا القطر شماله وجنوبه. وتشير المخلفات الأثرية إلى إختلاط العناصر النوبية والزنجية والقوقازية في المنطقة الممتدة من وادي حلفا إلى الخرطوم وجنوب الجزيرة والنيلين الأبيض والأزرق وساحل السودان الشرقي. وتجمع المصادر الأثرية والتاريخية على وجود مجموعات سكانية متشابهة في صفاتها الجسدية وحضارتها عمرت جنوب السودان وإختلطت خلال الألف الثالث قبل الميلاد وحتى بداية الألف الأول الميلادي بالمجموعات السكانية في أقاليم النيل الأزرق والأبيض وجنوب كردفان[4]. ونسبة لإستمرار إختلاط الأعراق والثقافات في السودان يصبح -كما يرى العديد من الباحثين- الحديث عن جنس معين مرتبط بثقافة بعينها وعزله أو عزلها مما يجري من تفاعلات ثقافية-حضارية في المنطقة من وجهة النظر العلمية أو الواقعية أمراً مستحيلاً[5]. ولهذا أطلق علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية صفة «السودانية» على المجموعات السكانية التي قطنت -ولا تزال- حدود السودان الحالي. وبمجئ القرن السادس عشر رسخت الخصائص السكانية للسودان كما نراها اليوم[6]. وإذا كان هذا هو الحال، يصبح الحديث عن تداخل إثني (عرقي) وتمازج وإختلاط بدرجات متفاوتة وصلات قربى بين مختلف المجموعات العرقية في السودان حقيقة علمية تسندها الأدلة الأثرية والتاريخية ويؤكدها الواقع العياني المعاش.

2- البعد الثقافي-الإجتماعي:

2-1 اللغة:

كان للسودانيين مشروع للنهوض الثقافي بدأت إرهاصاته منذ عهد مملكة كرمة (2500-1500ق.م.) وتبلور بشكل واضح للعيان في العهد المروي (900ق.م.-350م) هدفه خلق أمة كوشية (سودانية) تتميز عن جيرانها في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. ولعل أبرز دليل على ذلك محاولة المرويين إبتداع أبجدية خاصة بهم في القرن الثاني قبل الميلاد. ورغم التأثير المصري الذي لا تخطئه العين في مناحي الحياة السودانية المختلفة لاسيما في الجانب الديني، إلا أن النخبة المثقفة السودانية في ذلك الزمان تمكنت من إبتداع أبجدية (23 رمزاً) كتبت بها المعاملات التجارية والقانونية والأدعية الجنائزية على الحجر والمعادن والفخار وعلى ورق البردى والجلود[7]. ورغم أن هناك ظروفاً موضوعية عديدة ساعدت على التعجيل بإختراع الكتابة المروية (الخط النسخي) أبرزها الإنقطاع الثقافي عن مصر بعد فقدان السودانيين لسلطتهم السياسية في مصر وتقهقرهم جنوباً ليحكموا بلادهم من مروي (البجراوية) عام 663ق.م[8]، إلا أنني أميل إلى رأي مفاده أن هنالك دافعاً ذاتياً قوياً أدى إلى إختراع الكتابة وهو رغبة ثلة من الصفوة المثقفة المروية ذات الإرتباط بالبلاط الملكي في الإنعتاق من إسار الثقافة المصرية الوافدة والعمل على بلورة شعور بإنتماء مشترك تجسده لغة محلية مكتوبة. ولا مشاحة أن إختراع الأبجدية المروية كان إنجازاً حضارياً متفرداً لا يجير فقط لأهل السودان بل لأفريقيا قاطبة. ويجدر التنويه إلى أن اللغة المروية قد وصلت إلى أعتاب الأبجدية بل وتمثل ونظيرتها الأخمينية-الفارسية مرحلة شبه الأبجدية. ويعتبرها كثير من الباحثين تقدماً على الكتابات القديمة (المصرية والسومرية والبابلية والآشورية وكتابة بيلوس) في الشرق الأدنى القديم وتطويراً لخطوط من خطوطها (المصرية والسومرية)[9].

وبعد نهاية الدولة الكوشية (المروية) (350م) لا تشير الأدلة الأثرية والسجلات التاريخية إلى محاولة

جادة لإبتداع أبجدية للتعبير اللغوي المشترك لأهل السودان. وإستمر الحال على هذا المنوال طوال فترة الدويلات المسيحية (1504-543م) حيث أمدتنا الحفريات الآثارية بالعديد من المخطوطات والوثائق التي تشير إلى وضع لغوي مركب في السودان القديم يتسم بالتعددية. وليس أدل على ذلك من أن هذه الوثائق كتبت بلغات متعددة تشمل اليونانية والقبطية والنوبية القديمة والعربية. بيد أن ظهور الكونفدراليات الإسلامية في أواسط السودان (سلطنة الفونج) وغربه (سلطنة المسبعات والفور وتقلي) فضلاً عن فترة الحكم المهدوي (أنظر أدناه) أدى كل ذلك إلى إعتراف رسمي وشعبي باللغة العربية كأداة تواصل بين المجتمعات الثقافية في السودان –شماله وجنوبه- منذ ذلك الزمان وإلى يومنا[10]. هذا رغم تخوف البعض من أن إنتشار هذه اللغة ربما يؤدي إلى طمس هوياتهم الثقافية بشكل أساسي في لغاتهم ولهجاتهم المحلية وما تكتنزه من موروث ثقافي.

2-2 العادات والتقاليد:

ولعل من أبرز خصائص أهل السودان جميعاً هو التداخل الأسري والتلاحم الإجتماعي في الأفراح والأتراح. وهذه السمة متجذرة في نفوس السودانيين كما تشير معتقداتهم في العصور القديمة. وعند مجيء الديانات السماوية (المسيحية والإسلام) عملت أيضاً على ترسيخ مفاهيم الوئام والوحدة والمحبة بين الناس على إختلاف مللهم ونحلهم. وتشير الأدلة الأثرية التي ترجع إلى العهد الكوشي (المروي) (900ق.م.-350م) إلى ظاهرة العائلة الممتدة (Extended-Family). وهي بالطبع تقليد سوداني صميم لم يتأثر –بشكل لافت للنظر- بالمتغيرات الإقتصادية عبر العصور بل ظل قيد الممارسة حتى يومنا هذا. فالعائلة عند السودانيين ومنذ العهد المروي كبيرة الحجم تشمل معظم الأهل والأقارب بعكس العائلة المصرية الفرعونية التي كانت تقتصر على الأبوين والأبناء. ومن الأدلة على عمق هذا التقليد وتجذره في الوجدان الجمعي لأهل السودان أن أسلافهم كانوا وثيقي الصلة بأهلهم وذويهم ليس فقط في فترة حياتهم بل وحتى الذين إرتحلوا للدار الآخرة من ذوي المكانة الإجتماعية والسياسية كانوا يذكرونهم في شواهد قبورهم ونقوشهم الجنائزية، فضلاً عن طبيعة المنزل السوداني المشهور بالضيافة والكرم منذ آلاف السنين، فقد كان كبير المساحة، فأصغر منزل في العهد الكوشي-المروي كانت عدد غرفه تصل إلى خمس وأكبر المنازل ذات ست وعشرين غرفة معدة لإستقبال الأهل والمعارف والضيوف[11]. ومن العادات الجامعة لأهل السودان الشلوخ. ولا تزال تمارس هذه العادة لدى العديد من القبائل السودانية رغم إنحسارها النسبي في العقود الأخيرة. وترجع هذه الممارسة إلى العهد الكوشي-المروي (900ق.م.-350م) إذ تبين أنها من الممارسات المألوفة في السودان القديم. وتشير اللوحات الأثرية لأشكال زعماء (لوحة الملك المروي نتكامني وزوجته الملكة أمانيتيري في معبد الأسد بالنقعة مثالاً لذلك) وأناس عاديين تظهر على خدودهم وجباههم أنماط متنوعة من الشلوخ[12]. ومن العادات التي لا تزال مستمرة في أغلب بقاع السودان عادة إستخدام السرير الخشبي (العنقريب) وحمل الموتى عليه. وترجع عادة إستخدام العنقريب لحمل الموتى إلى ما يزيد عن أربعة آلاف عام إذ ترجع إلى مملكة كرمة (2500-1500ق.م.) بشمال السودان حيث كان يوضع المتوفى على سرير خشبي (عنقريب) في وضع قرفصائي داخل المقبرة. وثمة إشارة هنا وهي أن العنقريب الكرمي كان يطعم أحياناً بالمايكا والعاج. واستمر إستخدام العناقريب للموتى حتى العصر الحالي مع إختلاف في نوعية وكيفية إستخدامها إذ إختفت عادة دفن الموتى بالأسِرة واستعيض عنها بحمل المتوفى فقط على السرير (العنقريب) إلى مكان المقبرة[13].

2-3 الفنون:

يعتبر الفخار من أكثر أنماط الفنون المادية التي تكشف بجلاء عن الهوية الثقافية لأصحابه. ولقد تميزت فخاريات عصور ما قبل التاريخ في السودان بأنها يدوية الصناعة وتميل في معظمها إلى اللون البني بدرجات متفاوتة كما وأن بنياتها تتراوح بين الرمل (الكوارتز) والمواد العضوية (التبن والقش). ووجدت فخاريات هذه الفترة في العشرات من المستوطنات المتباعدة جغرافياً شملت وادي النيل ومنطقة البحيرات الإستوائية وشمال أفريقيا وغربها، وربما كان ذلك بدواعي إتصال حضاري مباشر أو غير مباشر حيث أن الظروف الجغرافية المطيرة في عصر الهولوسين (Holocene) كانت مؤاتية للتنقل والتداخل الحضاري عبر بقاع شاسعة. وفي ظني أن القاسم المشترك الأعظم لهذه المستوطنات المنتمية لعصر ما قبل التاريخ المتأخر (حضارة الخرطوم الباكرة، 8625-5000ق.م.) هو إشتراكها في قيم ومفاهيم جمالية عبرت عن نفسها بصورة جلية في نماذج متميزة من صناعة الفخار وزخرفته بصورة متفردة، أبرزها الطراز ذو الزخرفة المتموجة المتصلة (Wavy-lines). وهذا التجانس القيمي والجمالي يعضد فرضية مؤداها أن هذه المستوطنات المتباعدة الأطراف (داخل وخارج السودان) تمثل أنموذجاً لمنطقة ثقافية مشتركة بؤرتها الخرطوم خلال المرحلة المتأخرة لحقبة ما قبل التاريخ في أفريقيا[14]. وفي عهد مملكة كرمة (2500-1500ق.م.) تطورت صناعة الفخار السوداني من حيث الصنعة والحرق والتشكيل والزخرفة بصورة تضاهي نظائره في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. وفي عهد مملكة مروي (900ق.م.-350م) بلغت صناعة الفخار شأواً كبيراً حيث أنتجت مروي القديمة فخاريات متميزة تعتبر من أجود ما صنعه العالم القديم من الفخار. وخلال عهد الممالك المسيحية (1504-543م) حافظت صناعة الفخار السوداني على مستواها التقني الرفيع بفضل الإستخدام الواسع لعجلة الخزاف وبرزت أنماط جديدة من الأواني والأدوات والزخارف. أما في العهود الإسلامية فقد غلبت الأنماط المحلية على صناعة الفخار المتأثرة بتقاليد متوارثة وإن تم العثور على أنماط مستوردة من مصر والجزيرة العربية وشرق أفريقيا[15]. وتلزم الإشارة هنا إلى أن هناك تجانساً كبيراً تقنياً وثقافياً بين أقوام هذه المجموعات الفخارية في كل فترة تاريخية على حدة. وفي ذات الوقت لابد من التنويه إلى قواسم حضارية مشتركة خلال الفترات التاريخية المتعاقبة للحضارة السودانية تؤمي إلى الوحدة الثقافية التي جمعت بين أسلافنا الذين أبدعوا فنون هذه الفخاريات صناعة وتشكيلاً وزخرفة في كل المشيخات والممالك والدول التي أقاموها في السودان القديم.

3- البعد السياسي:

محاولات السودانيين وأشواقهم نحو إنتماء مشترك -وحدة في المشاعر والإرادة والمصالح- تجسده وحدة سياسية تستوعب التنوع الإثني (العرقي) والثقافي ليست وليدة اللحظة بل ترجع إلى أزمان بعيدة في التاريخ. وتشير المكتشفات الأثرية إلى أن أول المحاولات نحو بلورة نظام سياسي-إجتماعي يعمل على تنظيم العلاقات الإقتصادية والثقافية بين المجموعات السكانية التي قطنت السودان القديم قد تمت في حقبة ما قبل التاريخ المتأخر حيث تحولت المجموعات القبلية إلى مشيخات (Chiefdoms). وتوحدت الأخيرة في بوتقة مملكة كرمة في شمال السودان (2500-1500ق.م.) والتي تعتبر أول بناء سياسي مؤسسي تحت سلطة مركزية جمع السودان القديم (كوش) تحت وحدة ثقافية وإقتصادية يسندها جيش نظامي دخل به المعترك العالمي. وكان لهذه الدولة السودانية الباكرة ثقلها الإقليمي في أفريقيا والشرق الأدنى القديم[16].

3-1 ممالك كوش (كرمة 1500-2500ق.م ومروى 900 ق.م-350م).

وإتسمت الفترة التاريخية الواقعة بين نهاية دولة كوش الأولى (مملكة كرمة) وبزوغ دولة كوش الثانية (مملكة مروي) (900-1500ق.م.) بالغموض والضبابية إلى حد كبير، فلم ترفدنا التنقيبات الآثارية والسجلات التاريخية بمعلومات وافية عن الأحوال في السودان (كوش) آنذاك. وكل ما نعرفه أن السودان القديم قد دخل دائرة النفوذ المصري مرة أخرى في عهد الدولة المصرية الفرعونية الحديثة (1085-1580ق.م.) ووصل النفوذ المصري إلى الشلال الرابع في عهد الملك تحوتمس الأول (1530-1520ق.م.). ودخلت مصر فترة من عدم الإستقرار السياسي (1085-751ق.م) تمكن خلالها السودانيون من إستعادة نفوذهم السياسي وتأسيس دولتهم الثانية (900ق.م.-350م). وتعتبر مملكة مروي المحاولة الثانية لأهل السودان للوحدة السياسية حيث برزت على المسرح السياسي كدولة قوية في جنوب وادي النيل في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد. وتمكنت هذه الدولة من دحر النفوذ الأجنبي وبناء مملكة قوية دامت ما يربو عن إثني عشر قرناً. وتعتبر مملكة مروي صورة مصغرة لسودان اليوم بتباين ثقافاته وأعراقه. وتنامى نفوذ هذه الدولة في بعض فترات التاريخ لتصبح إمبراطورية تحكم وادي النيل طُرّاً ما يقارب قرناً من الزمان. وإجترحت مملكة مروي مشروعاً للنهوض التقني تمثل في تعدين وصهر وتصنيع الحديد. ولا يخفى علينا ما للحديد من فوائد جمة على مر العصور وفي مختلف مناحي الحياة. وأثبت الشاهد الأثري أن السودان القديم كان أول دولة أفريقية عرفت صناعة الحديد (القرن السادس قبل الميلاد) مسجلاً تفوقاً تقنياً على مصر الفرعونية التي لم تعرف هذه التقنية إلا بنهاية القرن الرابع قبل الميلاد(موقع تل الدفنة بمنطقة الدلتا). ولم تقتصر صناعة الحديد على المناطق الحضرية على مقربة من النيل بل ضمت مناطق مترامية الأطراف في أواسط السودان (الجزيرة) وجنوب شرقه(جبل موية) وجنوبه آنذاك(يامبيو ومريدي) ،فضلا عن أقاليم غرب السودان(كردفان ودارفور) مما يؤمي إلى أن صناعته كانت تمثل ظاهرة مجتمعية

في السودان القديم. ولم تقتصر صناعته على الأسلحة للجيوش الملكية المروية بل شملت مستلزمات حياتية عديدة من بينها أدوات زراعية وجراحية مجلفنة لحمايتها من الصدأ[17].

3-2 الممالك المسيحية (543-1504م).

وتشير المخطوطات والأدلة الأثرية إلى أن إنهيار دولة كوش الثانية (مروي) أدى إلى تشظي وتشرذم البلاد لفترة دامت قرنان ونيفاً من الزمان إنفرط خلالها عقد الدولة المركزية. وبنهاية هذه الفترة برز نموذج الدولة الثيوقراطية (Theocratic-State) متمثلاً في ظهور الممالك المسيحية الثلاث (نوباتيا في أقصى الشمال وتمتد من أسوان إلى أقرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، والمغرة التي تحتل المنطقة الممتدة من قرب الشلال الثالث إلى الأبواب (كبوشية) وعاصمتها دنقلا العجوز في حين أن مملكة علوة وعاصمتها سوبا جنوب الخرطوم تشمل منطقة شاسعة تمتد من الأبواب شمالاً إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً كما ضمت أجزاء من عطبرة والنيل الأزرق حتى الحدود الأثيوبية وبعض جهات كردفان ودارفور[18]. وتوحدت المملكتان الشماليتان (نوباتيا والمغرة) -في وقت غير معروف على وجه الدقة- في مملكة واحدة عرفت باسم «المغرة» وعاصمتها مدينة دنقلا وذلك لتأمين حدودها الشمالية ومواجهة أي غزو عسكري من مصر التي خضعت للحكم الإسلامي في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي.

3-3 الممالك الإسلامية (1504م-1916م):

واستمر نموذج الدولة الثيوقراطية حتى بعد إنهيار الممالك المسيحية وظهور دولة الفونج في مطلع القرن السادس عشر بسبب التحالف بين الفونج والعرب (العبدلاب) في أواسط السودان والذي أدى إلى زوال مملكة علوة وتكوين مملكة الفونج (السلطنة الزرقاء) التي إمتد نفوذها من دنقلاً شمالاً إلى فازوغلي جنوباً ومن البحر الأحمر (سواكن) شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً. وكانت هذه المملكة تمثل أقوى وحدة سياسية ظهرت في السودان في العصر الوسيط. وتجدر الإشارة إلى أن هذه الدولة كانت تمثل إتحاداً طوعياً أو كونفدرالياً للعديد من المشيخات أبرزها العبدلاب (عاصمتها أربجي)، الجعليين (شندي)، الميرفاب (بربر)، الرباطاب (أبو أحمد)، المناصير (سلمات) والشايقية (مروي)، فضلاً عن مشيخات أخرى أصغر حجماً في كل من ضفر ودنقلا والخندق وأرقو. وإتحدت كل هذه المشيخات والوحدات القبلية تحت نفوذ دولة الفونج بهدف حماية القوافل وتجارة الترانزيت وترقية التجارة الداخلية وتوفير الأمن ضد الغزوات الخارجية. ولا شك أن قيام دولة الفونج كان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان السياسي والإجتماعي والثقافي. ورغم ظهور بعض الممالك الإسلامية الأخرى في أجزاء أخرى من السودان مثل دولة المسبعات (1559-1821م) ودولة تقلي (1570-1927م) ودولة الفور (1640-1874م، 1898-1916م) إلا أن دولة الفونج تعتبر أكبر هذه الممالك وأكثرها منعة وتأثيراً على مجريات السياسة الإقليمية حيث إمتد ظل سلطانها على عدد من المشيخات تشمل منطقة شاسعة تمتد من دنقلا شمالاً إلى سنار جنوباً ومن البحر الأحمر (سواكن) شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً كما ضمت أجزاء من إقليم كردفان. ورغم نجاح دولة الفونج في إقامة دولة كونفدرالية تشمل عدداً من المشيخات السودانية، إلا أن محاولاتها لإقامة كيان سياسي عريض يضم، فضلاً عن ذلك، الممالك الإسلامية الثلاث في غرب البلاد (المسبعات وتقلي والفور) قد جانبها التوفيق[19] .

3-4 الدولة التركية – المصرية (1821-1885م):

وشهدت فترة الحكم التركي-المصري (1821-1885م) بزوغ أول وحدة سياسية للسودان الحديث بالرغم أن الهدف الأسمى من ضمه للدولة العثمانية كان كلونيالياً-إقتصادياً. بيد أن قيام حكومة مركزية في ذلك العهد بسطت سلطاتها على أغلب المناطق التي كانت تحت حكم المشيخات والسلطنات السودانية كان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان الحديث. وفشلت الدولة التركية في حكم البلاد بسبب طبيعتها الإستغلالية وقهرها للشعب السوداني. ويلزم التنويه إلى أن ذلك التغيير السياسي في العهد التركي-المصري (1821-1885م) متمثلاً في الواجهة السياسية (نظام كلونيالي-إقتصادي) وفرض سلطة الدولة المركزية على معظم أجزاء السودان الذي كانت تتقاسمه العديد من المشيخات والسلطنات (الفونج والمسبعات والفور وتقلي والدينكا والشلك والنوير وغيرها) لم يترافق مع تغيير جوهري في بنية الشخصية السودانية التي حافظت على إتساقها وإنسجامها بشكل كبير حتى بعد زوال سلطتها الوطنية. وكان للدور الذي لعبه رجال الطرق الصوفية الذين كانوا ينتقلون بين أرجاء الأقاليم السودانية وما لهم من أنصار ومريدين أثر كبير في الحفاظ على درجة عالية من التناغم الثقافي بين معظم شرائح المجتمع السوداني. وقد تجلى هذا الإنسجام الثقافي والتوافق الروحي بين المجموعات السودانية في بزوغ الثورة المهدية (1881-1885م) التي تمثل نظاماً ثيوقراطياً إستند على تعاليم إسلامية متشحة بروح وطنية[20].

3-5 الدولة المهدية (1885-1898م)

وتمكنت الثورة المهدية (1885-1898م) من إستقطاب الكيانات السودانية التي تضررت من نظام الحكم التركي-المصري. ولم يقتصر تأثير المهدية الفكري على شمال السودان بل تعداه إلى جنوب البلاد كما يتبدى ذلك في دمج الدينكا أكبر قبائل الجنوب لفكرة المهدية العربية-الإسلامية في تراتيلهم وصلواتهم. ونجح المشروع الآيدولوجي للثورة المهدية في تحرير السودان من نير الحكم الأجنبي وإقامة دولته الوطنية. غير أن حقبة المهدية تميزت بعدم الإستقرار السياسي والحروب الخارجية سيما في أخريات عهدها. وأدى كل ذلك إلى إنهاك مفاصل الدولة التي فشلت في حماية حدودها مع دول الجوار حيث مالت هذه الحدود إلى التناقص وإنعدام الفعالية بسبب عدم وضع حاميات بها بشكل دائم فكانت الثغرة التي نفذ منها الغزو الإنجليزي-المصري للسودان عام 1898م واضعاً النهاية للدولة السودانية الرابعة[21].

3-6 دولة الحكم الثنائي (الإنجليزي – المصري،1898-1956م):

دخل السودان في عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي-المصري) عام 1898م مرحلة جديدة من تاريخه الحديث حيث استطاعت الدولة الكلونيالية أن تفرض مشروعها السياسي والثقافي على أهل السودان، إلا أنها لم تستطع أن تمحو أو تذيب النظم والثقافات المحلية للمجموعات السودانية وربما عملت على إحيائها في بعض الحالات. ومن جهة أخرى، لم تفلح الدولة الكلونيالية في إحكام قبضتها على الأراضي السودانية بصورة نهائية وكاملة، إذ أن المعارضة والثورة استمرت لفترة طويلة إلى أن تحقق الإستقلال في غرة يناير 1956م [22] .وقامت الدولة السودانية الحالية في حدود المشيخات والممالك والسلطنات السودانية القديمة وتلك التي رسمها الحكم الأجنبي وفق مواثيق ومعاهدات دولية[22].

3-7 الدولة السودانية الحاضرة (1956م وحتى اليوم):

برغم أن السودان قد نال إستقلاله من داخل البرلمان في 19 ديسمبر 1955م فقد أعلن الإستقلال بشكل رسمي في غرة يناير 1956م ، إلا أنه لم يشهد إستقراراً سياسياً حتى اليوم . وظل الوضع السياسي يراوح مكانه بين ديمقراطيات شكلية (1956-1958م،1965-1969م، 1985-1989م) وأنظمة عسكرية (1958-1964م ، 1969-1985م، 1989- 2019م) إقصائية للآخرين أعقبتها ثلاث ثورات شعبية (21 أكتوبر 1964م ، 6 يونيو 1985م و 19 ديسمبر 2018م). ويلحظ أن ضعف بنية الدولة سهل عملية الإنقلابات العسكرية وأسهم في تشظي المجتمع إلى حد كبير[23]. ويبدو أن التنوع الثقافي (الآفرو- عربي) قد حفز بعض الباحثين السودانيين للنظر في قضية الهوية السودانية بإعتبارها هجنة أفريقية – عربية فظهرت في الستينات «جماعة الغابة والصحراء» الأدبية (بين أبرز دعاتها محمد المكي إبراهيم ، النور عثمان أبكر، على عبد القيوم ، صلاح أحمد إبراهيم وآخرون) . وكانت ترى أن الثقافة السودانية خلاسية و (الغابة) لها مقابل مكمل لما هو عربي (الصحراء) . ويشير ذلك كما يستبان من أدبياتها إلى تعادلية التأثير والتأثر . وشهدت حقبة الثمانينات نظرة أكثر شمولية لقضية الهوية الحضارية والثقافية السودانية برؤية تجمع كافة ثقافات أهل السودان عرفت بالسودانوية (Sudanism) . ومن أبرز دعاتها أحمد الطيب زين العابدين (أستاذ تاريخ الفنون بجامعة السودان للعلوم والتكنلوجيا) ونور الدين ساتي (أستاذ جامعي فسفير متقاعد). فالأول (زين العابدين) ينظر إلى «السوداناوية» من داخل التجانس فى الثقافة السودانية ، أي أنها التعدد في الوحدة والتثاقف الفريد بين رافدي هذه الثقافة الرئيسين (الأفريقي والعربي) مع الإعتراف بالخصوصية الثقافية والحضارية للموروث السوداني والإقرار بأن رافده الأفريقي هو الركيزة الأساسية في تيار السوداناوية[24].

أما ساتي فعلى على رأي مؤداه أن ما جعل السودان متماسكاً عشرات السنوات هي «السوداناوية» . أو ما أسماها روح الإنفتاح على الآخر» إن كان ذلك داخل الحدود الجغرافية أو خارجها سيما وأن السودان بطبيعته بوتقة إنصهار الثقافات والأعراق في قلب القارة الأفريقية[25].وأدت سياسة حكومة الإنقاذ (1989 -2019م) الأحادية التوجه والتي أرادت إختزال أهل السودان في عنصر وتوجه آيدولوجي واحد إلى التشرذم والتشظي مما أفضى إلى إنفصال جنوب القطر (أقاليم أعالي النيل وبحر الغزال والإستوائية) في العاشر من يوليو 2010م وإشتعال الحروب في أقاليم الهامش السوداني . ويبدو أن الأسباب سالفة الذكر هي أساس ثورة التاسع عشر من ديسمبر 2018م والتي جعلت قضية الهوية الثقافية في مقدمة أولوياتها وكسرت التابوهات (Taboos) القبلية والجهوية والطائفية . وشاركت فيها كل مكونات المجتمع السوداني ومن كافة أقاليمه. وليس أدل على ذلك من شعاراتها الوحدوية: «جيشنا معانا وما همانا» ، «جدنا ترهاقا وحبوباتنا (جداتنا) الكنداكة «. وكان الثوار يهتفون بهذه الشعارات ومثيلاتها في التظاهرات والإضرابات والإعتصامات على أنغام الأناشيد الوطنية التي تستدعى تاريخ وأمجاد ممالك السودان القديم . (كوش2500 ق.م- 350م) وتعمل على رفع وتيرة الحس الوطني. ولعل إنبثاق الهوية الحضارية والثقافية من زخم التعدد والتنوع مدها بمصادر ثراء وخصب دفعها عفواً وقصداً نحو العمل الطوعي والتواصل النفسي والوجداني عبر ضرورات التفاعل وتداخل سبل كسب العيش . وخير شاهد على ذلك إعتماد القوميات الأفريقية (الزنجية) والعربية على إختلاف أصولها اللغوية – اللغة العربية أداة للتخاطب فيما بينها[26]. ويشير ذلك إلى شعور السودانيين برابط وطني واحد تجسده لغة مكتوبة . وكان هذا ما أنجزته ثورة السودان الشعبية الثالثة (2018م) تعزيزاً للإنتماء الثقافي والحضاري والجيوسياسي المشترك. ومما تم إيراده آنفاً ، نلحظ أن هناك قواسماً مشتركة في اللغة والثقافة والتوجه الحضاري وأشواق الوحدة السياسية لأهل السودان عملت على تنميتها المجموعات الأهلية الإجتماعية ومنظمات المجتمع المدني عبر الندوات والمحاضرات والكرنفالات ومواقع التواصل الإجتماعي (Social Media) الأسفيرية التي بلورت شعوراً شعبياً بإنتماء مشترك. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن مشاريع النهوض الحضاري السوداني(ثقافياً وسياسياً) والتى كشفت عنها الحفريات الآثارية والسجلات التاريخية وعضدها الواقع المعاش (ثورة19 ديسمبر 2018م) لا تجترحها إلا أمة تشعر بتمايز عن غيرها من الأمم . وهذا بالطبع لا يتأتي إلا ببلوغ الحد الأدنى من التجانس الثقافي والحضاري (الطابع القومي للشخصية الفردية) الذى يسمح بالإقرار بوجود كيان معنوي جدير أن ينعت بـ(الشخصية القومية السودانية) بغض النظر عن الولاءات العرقية والجهوية والآيدولوجية . وهذا ما كان من شأن السودان منذ أزمان بعيدة وحتى اليوم.

الخلاصة:

ومما تم إيراده آنفاً، يلحظ أن هنالك قواسماً ثقافية وحضارية مشتركة في اللغة والعادات والتقاليد وأشواق الوحدة السياسية لأهل السودان جميعاً عبر أطوال تاريخ الدول التي حكمت البلاد سواء أكانت وطنية أو أجنبية. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هنالك شعوراً بالإنتماء المشترك لسكان السودان منذ القدم حتى اليوم. وليس أدل على ذلك من مشاريع النهوض الحضاري (ثقافياً وتقنياً وسياسياً) والتي كشفت عنها الحفريات الآثارية والسجلات التاريخية والتي لا تجترحها إلا أمة تشعر بتفرد عن غيرها من الأمم. وهذا بالطبع لا يتأتى إلا ببلوغ الحد الأدنى من التجانس الثقافي والحضاري الذي يسمح بوجود كيان معنوي جدير أن يسمى بـ»الشخصية القومية» بغض النظر عن الولاءات العرقية والجهوية والآيديولوجية، وهذا ما كان من شأن السودان منذ عشرات القرون.

الهوامش:

(1) Linton, R.1964. The Cultural Background of personality. N.Y.Appleton Centu-ry-Crofts.

(2) سامية حسن الساعاتي 1983 : الثقافة والشخصية . بحث في علم الإجتماع الثقافي ، دار النهضة العربية ، بيروت : 252-251.

(3) أنظر: فؤاد زكريا 1975 ، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة. الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة : 163 .

(4) أحمد محمد على الحاكم1990 . هوية السودان الثقافية : منظور تاريخي ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الخرطوم : 35-31.

(5) عمر حاج الزاكي 2000.» عوامل الإستمرارية والتغير في ملامح الثقافة السودانية: منطقة وادي النيل الأوسط(النموذج السوداني)»، مجلة دراسات أفريقية ، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية ، العدد الثالث والعشرون ، يونيو2000: 59.

(6) أحمد محمد علي الحاكم1990، مرجع سابق:32.

(7) المرجع نفسه: 53-52 .

(8) عبد القادر محمود عبد الله 1986. اللغة المروية : الجزء الأول ، مطابع جامعة الملك سعود ، الرياض: 158-155.

(9) المرجع نفسه :155.

(10) أحمد محمد علي الحاكم 1990،مرجع سابق:80-54 .

(11) عبد الرحيم محمد خبير2007، «الشخصية القومية من منظور آثاري-تاريخي:دراسة حالة السودان»، مجلة آداب، جامعة الخرطوم، العدد (25) ديسمبر2007 :7.

(21) المرجع والصفحة نفسها.

(13) المرجع نفسه:9-7.

(14) عبد الرحيم محمد خبير2005.»المنجزات الفكرية واالتقنية للحضارة السودانية».مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم، العدد الربع، يوليو2005: 22-8.

(15) المرجع نفسه:12-11.»

(16) عبدالرحيم محمد خبير2002 «نشوء الدولة السودانية:منظور آركيولوجي-تاريخي»، مجلة دراسات أفريقية،العدد الثامن والعشرون،السنة الخامسة عشر، ديسمبر 2002: 25-23 .

(17) عبدالرحيم محمد خبير2000،» السودان القديم :بداية صناعة الحديد في أفريقيا»، مجلة أدوماتو(المملكة العربية السعودية)،العدد الأول، يناير2000: 49-42.

(18) عبد الرحيم محمد خبير 2021. « النزاعات الحدودية بين السودان والدول المجاورة (2500 ق.م – 1956م) منظور آركيولوجي – تاريخي» في : ملامح من تاريخ السودان الحضاري : شواهد أثرية وتاريخية،الدار العالمية للنشر والتوزيع،القاهرة : 115-114.

(19) عبد الرحيم محمد خبير 2002 ، مرجع سابق : 29-28 ،35.

(20) المرجع نفسه:36-35.

(21) المرجع نفسه:33-32.

(22) المرجع نفسه:33.

(23) حيدر إبراهيم على 1995 – مقدمة في : التنوع الثقافي وبناء الدولة الوطنية في السودان ، أبحاث مركز الدراسات السودانية الدورية 3-1 أبريل،القاهرة: 8.

(24) أحمد الطيب زين العابدين 1999. السودانوية : تيسر فهماً عميقاً لهويتنا الثقافية ، في مجلة «كتابات سودانية» ، العدد الخامس : 87-67 .

(25) نور الدين ساتى 2010 . ما السودان ؟ ومن هم السودانيون؟ ، في صحيفة «التيار» اليومية ،الخرطوم، العدد 423 : 11 .

(26) الشفيع خضر 1995 . الهوية السودانية : محصلة التنوع والتعدد، في : التنوع الثقافي وبناء الدولة الوطنية في السودان : أبحاث مركز الدراسات السودانية الدورية ، 3-1 أبريل 1995م، القاهرة:58-56.